الشعر والشعراء بالمغرب عبر العصور*

عبد العزيز بنعبد الله

إن نظم الشعر موهبة، والإبداع في نسج مناويله عبقرية توذن بحساسية متناهية وشاعرية خلاقة، وكثير من فنون البيان وصنوف البديع لم يعرفه الخزرجيون ولا شرّاح كتب العروض كفن (المدرج) الذي لم يذكره سوى علماء الحديث.

فاسم الشاعر لا يطلق – كما يقول محمد بن العربي الشرقي - «إلا على من وصف في حرم المعاني بكل المشاعر، أما من سلك طريقة واحدة فآراؤه فاسدة وبناؤه على غير قاعدة». وهو يقصد بهذا التعريف جولات الشاعر وصولاته في شتى مجالي الحياة التي يحاورها بكل أحاسيسه «فالضلاعة في علم العروض ليست شرطا في قرض الشعر لأن غاية نظم الشعر صفة كمالية والقدرة على نظمه طبيعة غريزية وإنما يحتاج لعلم العروض ليعرف المتزن من النظم من غيره، فسيدي إدريس العراقي من العلماء المحققين كانت له اليد الطولى في العروض ومع ذلك لم يعرف له بيت شعر وكان لا يقدر أن يلفق سطرا واحدا منه»[1]

فالشعر فن له قواعده لاسيما الموزون منه – لأن الشعر الحر والمرسل لا يدخل في نطاق بحثنا هذا – وقد كانت مكتبات شعرائنا منذ العصور الأولى مليئة بالمصنفات التي استهدفت تقعيد هذا الفن منها المشرقي أو الأندلسي أو المغربي أمثال :

-(«البديع في صناعة الشعر» ليبزيغ 488) ليحيى بن عبد المعطى بن عبد النور الزواوي المتوفى (عام 628 هـ 1231 م).

- «وصل القوادم بالخوافي ، في ذكر أحكام القوافي»

لابن رشيد السبتي، وهو شرح لقوافي شيخه (حازم القرطاجني).

---

*هذه خلاصة مقدمة لكتاب مازال مخطوطًا بعنوان : «الشعر والشعراء بالمغرب منذ أزيد من ألف عام».

- «الوافي في نظم القوافي» المنسوبة لصالح بن شريف الرندي (684 هـ/ 1285)[2]

- «ضبط البحور الشعرية» المنسوبة لأحمد بن عباد السايح [3].

ولعل مما امتاز به المغرب في هذا المجال عدم تحرج العلماء من نظم الشعر كما وقع للإمام الشافعي القائل :

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد

ومع ذلك فله شعر كثيرامتاز بالرقة والعمق .

وقد اختار شعراء المغرب مجالات لتفريغ مواهبهم الملتهبة لا تقل سعة عن شبكة اختيار شعراء الشرق وإن كان للمغرب شعر خاص يضم (رجزيات) في نظم قواعد وأحكام كثير من العلوم، ولعل لهذا العامل أثرا في توافر الشعراء والعلماء. ولم يعرف المغرب ما عرفته الأندلس ـ عدا عطاءات الأمراء و الملوك ـ من رباع قد وقفت على الشعر والشعراء. فقد حبس ابن الملح في شلب (Silves) أرضا من جملة ماله على الشعراء بلغت غلتها السنوية مائة دينار[4] لذلك كان معظم رجالات شلب شعراء.

وقد حفل المغرب عبر عصوره الزاهرة برجالات قاموا بحفظ وتدوين ورواية أشعار العرب في جنبات العالم العربي كافة منهم :

- محمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي الشاذلي الذي انفرد بعلم اللغة وحفظ دواوين العرب وقد توفي (عام 1103 هـ/ 1691 م)[5]

- علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن عمران السلاسي قاضي فاس ومفتيها والمحدث المولود (عام 960 هـ/1552م) الذي يكاد يحفظ (اكتفاء) الكلاعي ساردًا عن ظهر قلب القصائد المطولات التي توجد فيه.

- ومن أعلام الأندلس الذين أسهموا في دعم علمي الدراية والرواية بالمغرب محمد بن عبد الله بن قيس ابن الغازي القرطبي الذي توفي بطنجة (عام 296 هـ/ 908م) وهو الذي أدخل الأندلس والمغرب علمًا كثيرا من الشعر والغريب والخبر، وعنه أخذ أهل الأندلس الأشعار المشروحة كلها[6].

وقد كان للشعر العربي وجَهَابِذَته أثر عميق في الفكر المغربي مما فتّق عبقرية وشاعرية رواده الذين خاضوا غمار مناظرات عرفها أقطاب القريض، ويكفي أن

نشير هنا إلى ما أبدعته يراعة عالم مغربي في هذا المجال وهو علي بن احمد مصباح الخميسي اليصلوتي المتوفى عام 1125هـ 1713م).

وقد تردد على الساحة المغربية نتاج الفكر العربي في كل مجاليه ومحاوره فعرف المغرب صنوفه من هجاء ورثاء ومديح وتغزل وتشبيب ووصف للطبيعة ومآثر للدول المتعاقبة على المغرب وغير ذلك مما رسمنا بعض ألوانه في تراجم شعرائنا ضمن هذا البحث.

وكان الشاعر العربي والمغربي يشعران ويعبران عن وحدة الصف والفكر والهدف في الوطن العربي ويتغنيان بأمجاده، ولنستمع الى البحتري يقول معرضاً بطنجة والسوس :

إن شعري سار في كل بلد ... واشتهى رقّته كل أحد
أهل فرغانة قد غنوا به ... وقرى السوس وألطا وسدد
وقرى طنجة والسوس التي ... بمغيب الشمس شعري قد ورد[8]

وقد اهتم شعراؤنا بل وكل علمائنا - وإن لم يكونوا شعراء - كعلي بن أبي الحسين بن مومن بن محمد ابن عصفور الذي عرفنا جولاته وصولاته في مراكش وأنفا والذي توفي بتونس (عام 669 هـ 1270 م) وقد حلل لنا «سرقات الشعراء» وكذلك «الضرائر الشعرية» [9] علاوة على إسهامه في بلورة عطاءات المتنبي الذي أفرد ديوانه بشرح قيم.

وبرز شعراؤنا في التوشيح على نسق الأندلس فرسموا روائع بذوا فيها أحيانا ينابيع الاقتباس، وممن نظم من المتأخرين على طريقة توشيح إبراهيم بن سهل الاندلسي (المتوفى عام 659 هـ/ 1260 م) علي بن أحمد زنيبر السلاوي (المتوفى عام 1320 هـ/ 1902 م) في رسالته :

«درر عقد النصيحة بسك الإبريز بنحور جنة حبور مولاي عبد العزيز»[10] ومن مظاهر استكمال شعرائنا لأبواب القريض نماذج أشرنا إليها في صلب بحثنا، وقد كان الشاعر الإفراني يفتخر بأنه أشعر الشعراء، كما في «الدرر المرصعة» حيث قال:

أنا أشعر الشعراء غير مدافع ... من قال لست بشاعر ياتيني
فكري هو البحر الخضم شبيهه ... والبحر حاوي الجوهر المكنون[11]

وقد جمع (بن الأحمر اسماعيل بن يوسف) ماقيل من شعر من لدن كتاب بني مرين في (سيف منار القرويين)[12].

أما المديح فقد شمل درراً غراء في مدح الرسول بالإضافة إلى مدح الملوك.

ونلاحظ أن مديح بعض الأمراء انصب خاصة على بعض مآثرهم كتنويه علماء شعراء أفذاذ وهم عبد الواحد الونشريسي ويحيى السراج وعلي ابن هرون بالسلطان أحمد الوطاسي بمناسبة تجديد بناء قنطرة الرصيف بفاس [13].

وقد انصب مديح بعض شعرائنا على الانتاجات العلمية فقرّظ شاعرنا الفذ محمد بن اليماني الناصري شقيق زميلنا الشيخ المكي كتاب «الاعلام» للمراكشي، فقال :

أنثير دُرّ أم حَباب الكأس ... أم أَزهر الروض الأريض الكاسي

أم تاج مائسة القوام وقد بدت ... تذكي الغرام بعطفها المياس

كما مدح شعراء آخرون السلطان محمدا بن عبد الرحمن العلوي من خلال الإشادة بالمطبعة الحجرية التي أنشأها بفاس منها قصيدة مطلعها :

سألت الندى والجود أين حللتما ... وأين مقر المجد والاثرات [14]

وقد حرص علماؤنا على تجميع هذه الأنظام الرائعة في دواوين كـ «الأمداح الحسنية» (أي السلطان الحسن الأول) التي جمعها عالم من سوس حين كان الحسن الأول خليفة بالجنوب (عام 1282هـ/1865م)[15]

وقد أشاد الشعراء في مدائحهم النبوية بشمائل الرسول عليه السلام أو بفضائل سرد أحاديثه و التمسك بنسبته وكان الملوك يهتمون منذ العهد السعدي أوائل القرن العاشر الهجري بإقامة حفلات لإنشاد البردة والهمزية و(بانت سعاد) بمناسبة حلول شهر ربيع الأول، فكان (المنصورالسعدي) - كما ورد في «المنتقى المقصور في مآثرخلافة المنصور» لابن القاضي - (الباب الرابع) يستدعي الناس أيام المولد النبوي على ترتيبهم فيقرأ بعض القراء شيئا من كلام الولي الصالح «محمد بن عباد» ثم الميلاديات بألحان ذكية وإنشاد مقطعات الشعر.

وقد دشن السلطان سيدي محمد بن عبد الله إتمام (جامع السنة) بالرباط فأقام حفلا كبيرا حضره المادحون فكان التلحين مناوبة بين أهل فاس وأهل تطاوين

ووزع بالمناسبة الأعطيات على الفقهاء والطلبة والمجاهدين[16] وفي عام (1290هـ1873م) أقام السلطان (الحسن الأول) حفلة بمناسبة عيد الفطر بالرباط ختم خلالها «صحيح الإمام البخاري» على العادة الجارية وسردت خلالها نيف وخمسون قصيدة أجاز عنها كلّ الشعراء.

وقد نظم علماء المغرب والأندلس قصائد في التوسل بالرسول عليه السلام كانوا يوجهونها إلى القبر الشريف، ومن هذه القصائد قصيدة لابن مرزوق محمد بن محمد (خع 2417د).

ومن النماذج المصنفة في الموضوع كتاب «غنيمة العبدالمنيب في التوسل بصلاة النبي الحبيب» لمحمد بن محمد بناصر الدرعي(1085هـ/1674م)[17] وهو مرتب على حروف المعجم لكل حرف خمس وثلاثون فقرة.

«القصائد المغربية في مدح خير البرية» لأحمد بن محمد المقري التلمساني الفاسي صاحب «نفح الطيب».

«مجموعة قصائد على حروف المعجم» في الموضوع لأبي سالم العياشي(من 700 بيت). وقد أشار أبوسالم في رحلته[18] إلى أمداح نبوية لشعراء مغاربة[19] ، وأشار باشا السودان علي بن عبد القادرالشرقي المغربي (الذي كان مرفقا بمحمد بابا السوداني ومحمد بن عبد العزيز الدرعي وأحمد بن محمد السوداني) في رحلته الى بعث رسالة سلطانية وتلاوة قصيدة أمام الروضة النبوية كما كان الأمر بالأندلس وفي عهد المرابطين[20].

وقد جادت قرائح شعراء المغرب بقصائد في مناسبات وطنية كالإشادة بتحرير(العرائش)، وهي أنظام ألهبت قرائح المواطنين وحدتهم الى مواصلة النضال لإجلاء العدو المغير عن (جيوب الساحل) في العهد الإسماعيلي.

ومن هذه القصائد قول عبد الواحد البوعناني :

ألا أبشِر فهذا الفتح نور   قد انتظمت بعزمكم الأُمور

وقصيدة لعبد السلام جسوس يعرض بوجوب تحرير سبتة قائلا : [21]

رفعت منازل سبتة أقوالها   تشكو إليكم بالذي قد هالها

وثالثة للشيخ عبد السلام القادري مطلعها :

علا عرش دين الله كل العرائش   وهد بنصر الله قصر العرائش[22]

وقد نظم يوسف الشودري التطواني عند تحرير العرائش قصيدة مطولة (170 بيتا) قال فيها:

الحمد لله الذي قد أظهـــــــــــر عصابةَ الدين على من كفـــــــــر
ونصـر الإسلامَ والحقُّ بـــــــــــدا وضل من دين الصليب عبـــــــدا

ولمحمد بن علي الرافعي التطواني قصيدة استهلها بهذا الهتاف :

هنيئا هنيئا وبشرى لنــــــــــا بنصرسعيد وفتــح مبــين[23]

ولعمر الحراق :

ومن عجب تروم الروم حربــــــا بسهـل أو حـزون أو جـــبـال
وقد شهدوا العرائش يوم جـاءت بها الأجناد تزحف للقتـال[24]

ولنستمع للشاعر ابن الاعرج السليماني (1926م) وهو يعبر عما فتت كبده من لواعج عند حصار الجيش الفرنسي لفاس (عام 1329هـ) .

سلا هل إلى (وادي الجواهر) من قرب وهل أنبتت حافاته عاطر العشب؟

(خع 1254 د)

ولمحمد بن الشيخ سيد بن المختار بن الهبة الصحراوي (1284 هـ) شعر يحث فيه الصحراء المغربية على الانتفاضة لمحاربة كل من المستعمرالفرنسي والأسباني قائلا :

رويدك إنني شبهـــــــــــت دارا على أمثالها تقف المهـــارى
ولو في المسلمين اليوم حرٌّ يفكُّ الأسر أو يحمي الذمارا
لفكُّوا دينهم وحَمَوه لَمَّـــــا أراد الكافرون به الصَّغـــارا
حماةَ الدين إن الدين صــــــار أسيرًا للصوص وللنصـــارى
فإن بَادَرتموه تَدَاركــــــــوه وإلا يسبق السيف البـــدارا

وقد حفلت الدواوين بقصائد لا تخلو من فائدة تاريخية كديوان عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي (836 هـ1481م) والذي يُعطينا صورة عن حالة المسلمين بالأندلس قبل النفي العام بسنوات، وقد سجل الناظم أحداث سقوط آخر مدن وحصون الأندلس.

ومن الملاحم الشعرية ما أشار إليه ابن خلدون[25] في (الحدثان) حول دولة لمتونة واستيلائهم على المغرب وكذا «نظم الدرر بآي أحمد أجل البشر» لأبي الحسن الرهوني وهو من الشعراء العلماء في منتصف القرن السابع الهجري يضم رجزه هذا 6.300 بيت نظمت بطلب من الخليفة المرتضى الموحدي (665 هـ/1266م).

وقد انبثقت من ثنايا هذه المجموعات الشعرية نفثات نسائية كتعريضات الجارية المظلومة التي نشأ ت بالمغرب وأهداها يوسف بن تاشفين للمعتمد بن عباد فرمى بها في النهر لسبب تعريضاتها به[26].

وهناك شواعر كسارة الحلبية الفاسية المتوفاة بمراكش (بين 656م و 685هـ) القائلة في مالك بن المرحل، ولعلها كانت تحبه : (ياذا العُلَى ياملكًا أَنعِم علي بمالك).

وورقاء بنت ينتان الفاسية (توفيت بعد 540هـ)

وقد عرفت الصحراء المغربية شواعرمثل ميمونة بنت محمد الحضرمي (المولودة عام 1307هـ 1889م) وقد كانت راوية للشعر مشاركة في العلوم.

وقد عني المغاربة بما نظمه الشلحيون من قصائد عربية أو أسهموا بها في إثرء الفكر الإسلامي. والشلحة هي لغة رجال الأطلس الصغير وهم الشلوح (وفيهم عرب من آل البيت لا يعرفون العربية) يقابلها في الأطلسيْن الكبير والأوسط و الريف (تامازيغت).

وممن برز في الشلحة :

– الشاعر جامع بن محمد بن علي إيغيل (1387 هـ/1966م)[27] من قرية (اتوزونين) في (أقا).

ـ حمو قيس : له قصيدة في المديح النبوي (خح 9356).

ـ حم المازغي : له نظم بالشلحة في التوسل بسيدي أحمد و موسى (ثلاث نسخ مصورة في خع 1321د).

ـ الشيخ علي الدرقاوي والد الأستاذ محمد المختار السوسي (1328 هـ1910م) نظم «الحِكَم العطائية» بالشلحة يَقرأها أصحابه كل صباح بعد مجلس الذكر، ولكنه لم يستوفَ كامل الحكم[28]. وهناك عشرات الشروح النثرية لمصنفات عربية كشرح بالشلحة لعبد الله بن يحيى الحامدي (خع1098 د).

وقد نظم (سابق البربري) بيتين في فضل العلم :

العلم فيه حياة للقلوب كمـــــــــا تحيا البلادُ إذا ما مسها المطرُ
والعلم يجلو العَمَى عن قلب صاحبه كما يجلّي سواد الظلمة القمرُ

«جامع بيان العلم وفضله لإبن عبد البر» (ج1، ص59).

وقد نظم علي الهوزالى[29] شعراً بالتركية يمدح به بعض العجم وهو أحد كتاب الإنشاء بباب ولي العهد السعدي (عبدالله المامون) بالحضرة الفاسية، رحل الى القسطنطينية مع القائد أحمد بن يحيى الهوزالي[30].

ومن أغرب اهتمامات علمائنا بما ينشر عنا خارج المغرب باللغات شعرا أو نثرا قيام العلاّمة محمد بن علي دينية الرباطي (1358هـ-1938م) بتجميع وطبع أربعين قصيدة إسبانية و عربية لبعض المستشرقين من الإسبان [31].

وقد استعرضنا فعلا الكثير من شعراء المغرب منذ أزيد من ألف عَام، رتبناهم على الحروف الألفْبَائية فناب حرف الألف وحده (235) شاعر،فيهم الحضري والبدوي والصحراوي، تبلوِر عطاؤهم في فسيفساء زاخرة بألوان اختلفت مجاليها وتنوعت مواجدها في وحدة فكرية تناسقت أجزاؤها بين المتوسط والمحيط وعبر الفيافي القاحلة مما قد لا نجد له إلا المثيل النادر. وقد انعكس على هذه الشاعرية ـ بالإضافة إلى نوافح الوجدان – إحساس غامر بوصف مظاهر الطبيعة ومجالي الحياة التي ينغمرفيها الشاعر، فتجد بين أصناف القريض بوادر وبواده تشهد بتلقائية هذا الفيض الشاعري الغامر الذي اتسمت بعض مظاهره بميزات طغت أحيانا على التقاليد الكلاسيكية مما يبرز نوعا من روح التجديد. إذ هناك نماذج من الأنظام الغزلية يَقصد فيها أصحابها الاستهتار شكلا ومضمونا كابن غزلة الذي تغزل بأخت عبد المومن بن علي (رميلة) الشاعرة الزجالة، فأوغل كما أوغل استخفافا بالقواعد، فلحن في الموشح وأعرب في الزجل والمواليا «والكان وكان» ملحقا الزجل بالموشح عن طريق إعراب بعضه كما ألحق الموشح بالزجل فرنّمه وعرفت موشحاته بالموشحات المرَنمة.

وقد حدا نافح التغزل بعض علماء الحديث إلى إفراغ قواعد الدراية والرواية أي مصطلحات الحديث في قوالب غزلية كقول (ابن فرج اللخمي) المراكشي (699هـ) في مطلع قصيدة علمية :

غرامي صحيح والرجا فيك معضل والحديث المعضل معروف

وقد قال أبو المواهب سيدي العربي بن السائح في وصف الأتاي مستعملاً كلمة (معضل) وقد كان الناس يتركون شرب الشاي لما قيل في السكر آنذاك) :

واتـرُك مـقـالـة مُـعْـضَـل فـي شـأنـهـا وارْوِ الـمـسـلـسـلَ مـوصَـلَ الإسـنـاد

ومن الشعراء الذين حاولوا التلاعب بضبط الألفاظ تلميحًا لبعض الصفات الشاعر الهرغي عبد الله بن محمد الذي حج (عام 747 هـ)حيث ألغز في (البربر) قوله :

وما أمة سكناهم نصف وصفهم وعيش أعاليهم إذا ضم أوله
ومقلوبه ياب الضم مشروب جلهم وبالسكر من كل عليه معوله

(«الدررالكامنة» لابن حجر، ج 2، ص 402).

ولشاعر الدولة السعدية عبد العزيز الفشتالي (ت1031هـ) مولديات نقشت بها كتابات في (قصر البديع) بمراكش مع وصف رائع للمهرجانات المخزنية وحفلات الشموع.

وقد مدح محمد بن علي الوجدي الغماد (قبة الريح) وهي إحدى قباب (المنصورالسعدي) بمراكش فقال، مشيرا الى (قبة الخيول) (وقبة النصر) :

أنا التي لسرور النفس مبدعة ومنظري لجياد حول ريحان
لقبة الريح والأفراح ناظرة تاج الملوك الإمام الشيخ أنشاني

وقد نظم محمد بن يوسف النجاري الفاسي في (السد) الذي بناه المنصورالسعدي :

شتى مكارم لم تعد لقياس حاز الفخار بها أبو العباس
فأقلها تأسيسه وسداده سد تعاظم أمره من فاس

(«الجذوة»، ص 149، «روضة الآس» للمقري طبعة الرباط، ص،338).

ومن شعر صاحب القلم الأعلى (أبي القاسم ابن رضوان) كتب على دواة موشاة بالذهب للسلطان (أبي سالم المريني) جاء في مطلعها:

لبستُ محاسن الوشي البديعَ وفقتُ بمنظري زهر الربيع

أما(المنصور الموحدي) فقد حظي بمعظم ديوان يحيى بن عبد الجليل الشقوري المراكشي (587هـ) الذي تضمن (9400) بيت وصف فيها (مقصورة القصبة) التي

كانت تتحرك بدواليب آلية وقد أشار إلى ذلك (ابن خلكان ،ج 2 ،ص 328).

أما الهجاء فقد ورد فيه السبك المألوف كما عرفت فيه نماذج بذيئة نتحاشاها.

كما حفلت الدواوين بمناظرات ومساجلات شعرية حول مدن وحواضر مغربية[32] وغير مغربية حيث تضمن «إتحاف أشراف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا» لمحمد بن علي الدكالي السلوي (المتوفى بفاس عام 1364هـ/1945م) ردا في نحو (3000) بيت على رسالة ابن الخطيب السلماني (مفاخرة بين مدينة مالقة ومدينة سلا)(خع 383/11) (65 ورقة/خح227).

وهناك سجلات حافلة بألوان معرفية تحيد أحيانا عن مستهدفات القريض كنظم رحلة حجازية[33] وأراجيز في الطب (أرجوزة ابن طفيل في 7000 بيت) و«الياقوتة الفريدة في نظم العقيدة» لأحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي (1175 هـ/ 1761م) و«الجملة الشعرية في بعض الأمثلة النحوية» (وهي نظم للأجرومية في أكثر من 100 بيت لأحمد بن صالح) وغيرها.

ومن الأنظام الفكاهية قول الشاعر القاضي (بسير) جد أبي حامد البطاوري الرباطي :

مررت بعاطر يبيع قرنفلاً ومسكا   وكافورا فقلت له ..(يستنشق)

فقال العطار رُد قرنفلي   ومسكي وكافوري فقلت له .. (يستنثر)

ولعلي بن محمد الشودري التطواني (كان حيا عام 1078 هـ) رجز فكاهي يشكو فيه حالة عدول عصره إلى قاضي تطوان محمد بن قريش: ولمحمد ركشة الرهوني(المتوفى عام 1230هـ) قصيدة رثى بها الشيخ التاودي بنسودة مطلعها :

لقد غربت شمس الزمان لدى العصر   فأمست قلوب العالمين عن جمر

(خع 158د).

وقد توافرت في الديوان المغربي صوفيات وزهديات كشعر الحراق الذي كاد يضاهي (ابن الفارض) في مثل قوله :

أتبحث عن ليلى وفيك تجلَّتِ   وتحسبُها غيرًا وغيرَك ليسَتِ

وقد عارض الشاعر مسعود المريني ابن الوفا وابن الفارض في قصائد رائعة منها :

سهام الموت راشقة النبال ونحن مع البطالة لانبالي

ولمحمد العربي بن احمد بردلة الفاسي (1032هـ) بيتان جريا مجرى المثل :

فقلتُ ذريني على حالتي فإن الهموم بقدر الهمم

(شرحهما أبو المواهب سيدي العربي بن السائح في رسالة وجيزة)

وقد جمع شعراء بين الموزون والملحون كأحمد بن الطيب السفياني الفاسي(المتوفى عام 1286هـ) حيث قال :

يا بديع الجمال روحي فداك إنني شائق لحسن بهاك

ذاب جسمي يامالك العقل مني فغدا القلب لايروم سوك

وهو القائل أيضا :

ياترى محبوب قلبي هل درى ماقلبي من ألم واكتئاب

وعذابي في هواكم حلا وأنا في رقة شيخ وشاب

وقد فاق التهامي المدغري (المتوفى بفاس عام 1273هـ) أهل زمانه في الزجل وشحن ملحونه بالقضايا التاريخية تلميحا وتصريحا دون إغفال الغزل والحب والخمريات ووصف الطبيعة وكان أستاذا في (جامع ابن يوسف) بمراكش.

ومنهم من نظم تمجيداً لمسقط رأسه كالشاعر عبد المالك التجموعتي قاضي سجلماسة (المتوفى 1118هـ) الذي مدح طنجة في قصيدة مطلعها :

ليهنِك أن زدت الهدى بهجة بثغرك الأشنب ياطنجة

كما مدح محمد ابن داني التازي الكبير(1305 هـ) مدينة العرائش قائلا :

بمرسى العرائش مايُشتهى وإن غبتَ عنها تشوقتَها

ومثلها قصيدة للوزير ابن إدريس في مدح فاس :

ألا ليت شعري هل أبيتَنَّ ليلةً بفاس وحولي من مُنَايَ ثلاث
مغانٍ بها أغني وأهل وجلة أجل بهم بين الورى وأغاث
وهل أردن وادي الجواهر جهرةً وهل يَبْدَوَنْ لي زالَغ وتِغَاث

(وزالغ وتغاث جبلان محيطان بفاس).

وللشيخ العربي بن محمد بن يوسف الفاسي لما تغرب عن فاس :

وأي بلاد غير فاس تروقه وقد شب في أحضان فاس وشابا
يرى كل ترب دون تربتها قذى ويحسب ما فوق التراب ترابا

ولمحمد الفاطمي الصقلي (1311 هـ) :

حيي الحيا الواكب الأرجاء من فاس دار تطيب بها للطيب أنفاسي
تفوق أندلساً والشامَ نظرتها كما يفوق بنوها جملة الناس

والواقع أن الشاعر المغربي قد استوفى جميع أصناف القريض في إبداع وتلوين ودقة في التعبير والتصوير والتنظير مع بادرات رائعة أضفت - كما رأينا - طابعا خاصا على هذا اللون من الإشعاع الفكري الذي لو حاولنا تقصيه لاستغرق الاستقراء العديد من المجلدات، وأروع ما نلمسه في مختلف الأنظام الصراع بين نوازع وجوانب متضاربة حيث زخر الشعرالمغربي مع توالي العصور بِرنَّات حماسية وخلجات عاطفية ولقاءات واقعية غلب جانب منها أحيانا على جانب آخر تبعًا للنوازع التي فجرت المشاعر فكان للحروب الصليبية أثرها، ولمأساة (الفردوس المفقود) وخزاتها منذ القرن التاسع الهجري أنست الشاعر ورود الخدود ورشاقة القدود فامتلأ الشعر وأصبح نحيب الشعراء ينسكب في مراثي مُحْزنة كلما استولى العدو على مَغْنًى من مغاني (العدوتين) أو مربع من مرابعهما. ولعل هذا التفجع انطلق منذ ألف سنة حيث قال الإمام السهيلى المراكشي عندما خرب الأسبان مسقط رأسه (سهيل) :

يادار أَين البيضُ والآرام أم أين جِيرَانُ علي كرام ؟
راب المحب من المنازل أنه حَيَّى فلم يُرجع إليه سلام

وقام (أبو بكر محمد بن صاحب الصلاة) خطيبا في وفد الأندلس أمام عبد المومن بن علي فأنشد من حماسياته ما أذكى النفوس وألهب الأحاسيس، وأهاب بالخليفة إلى نجدة الأندلس المهدد، وهنا امتزجت روح الشاعرين المغربي والأندلسي في زفرات على انتثار عقد الأندلس الذي ظل منتظما نحوًا من ثمانية قرون، فبكى أمثالُ (أبي البقاء صالح بن شريف) وأبكى حين قال :

لمثل هذا يذوب القلبُ في كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

غير أن الشاعر ما لبث أن عاد إلى أفانينه ومنازعه في التغني بالسوالف والخدود فقال السلطان زيدان بن المنصور الذهبي :

فتنتنا سوالف وخدود وعيون مدعجات رقود
ووجوه تبارك الله فيها وشعور على المناكب سود
أهلكتنا الملاح وهي ظباء وخضعنا لها ونحن أسود

وانساق الشعر عبر القرون التالية في متاهات الحب وفيا في الوجدان، فلنستمع إلى الشاعر (المهدي الغزال) وهو يصف راقصة :

قامت بكأس الراح راقصة بين الغواني رقصها طرب
كأنها والكأس في يدها بدر تبدى حوله كوكب

ثم يقول متأثرا بزهادة العصر :

الموت لاشك آت وكل آت قريب
فثب وثب قبل أن يعتريك منه وثوب

وللشاعر عبد القادر بن شقرون القائل :

اسقياني كؤوس بنت الدوالي إن عراني السقام فهي الدوا لي
كم ليالٍ قضيتها في نعيم حفظ الله عهدَ تلك الليالي
بين راحٍ وشمعة ومغن وظباء قَنَصْتُها باحتيالِ

ولا تكاد تصدق أنه هو القائل في نزعة صوفية عارمة :

رب يَسِّرْ لعبدك الفتح واشرح صدر من صدره من العلم خال

ومن شعر (علي مندوصة) الذي قيل عنه إن كلامه (يغار منه امرؤ القيس ويحن إليه جميل بثينة وقيس) :

إلى كم فدتك النفس ترمي فؤادنا بسهم نضي اللحظ أرياشه هدب

إلى أن قال :

فدونكم ربات قرط خريدة مفوفة هيفاء هام بها الحب

مبرقعة لمياء غضة بضة سوى أنها عذراء ناهدة عرب

ونسمع في مسارنا هذا عبر العصور الحديثة قول الشاعر(الهاشمي شكلانط) الرباطي وهو يلهو في وصف أمرد :

ورشا من آل يافث لحظةُ للسحر نافث

يخطأ السين إلى ثاء المثاني والمثالث

قلت جُد لي بوِصال قال دع عنك الوثاوث

ويذكرنا هذا الشعر المرح ببيتين ساقهما الجاحظ في «البيان والتبيين» :

وألثغ رأيته يفعل مالا ينبغي

قلتُ له أنتَ بَري قال بلى أنا بَغِي

وظل الشاعر متأرجحا بين همسات المواثيق والعهود ونوازع الخدود والنهود إلى أن انبثق فجر القرن العشرين فعاد الشاعر الى حماسه الوطني وانبرى أمثال محمد غريط صاحب «فواصل الجمان» يردد نشيدًا نحا فيه منحًى طريفًا في التوشيح مناديا :

يابني الدهر أجيبوا داعي النصح المنير

واستجدوا ذكر قطر كان ذا صيت شهير

جددوا للغرب مجدًا واركبوا كدًا وجدا

واقدحوا للعلم زَندًا والبسوا للحزم بردا

وعبد الله الفاسي سفير السلطان مولاي عبد الحفيظ بباريس القائل :

هاذي المناطد فوق الجو تنشدنا ... هاذي المآثر والآثار في الدول
هذا القطار يخد الأرض ممتطياً ... متن البسيطة في سهل وفي جبل
هاذي البواخر في عمق البحار وفي ... أعلاه تفعل فعل الفارس البطل
هذا التمدن هذا الفضل فاعنَ به ... ليس التمدن بالألحان والغزل

ومع ذلك فقد ظل الشاعر يتغنى ويتشبب لا فرق في ذلك بين عالم زاهد وفتى خليع، فاستمع إلى الفقيه الناسك أحمد البلغيثي :

بدت لي ترنو بالعيون الفواتر ... ولكن لها في القلب وقع البواتر
بدت لي وفي قلبي المُعَنَّى بحبها ... لواعج أشواق كحَر الهواجر

وتقاربت آنذاك أبعاد الوطن العربي في خضم التحالفات الاستعمارية فاشتد حنين بعضها لبعض وبدأ المغرب يردد في تلهف وحنان أصداء الشرق المتنائي الذي حالت دونه حجب مفتعلة مترسما خطاه في كل شاذ وفاذ، فعبر الشاعر المغربي عن حرقة الأدباء في فجيعتهم ب (المنفلوطي) حيث أنشد (محمد بن اليمني الناصري) هذا اللون الجديد من الشعر مشيرا الى بعض مصنفات الفقيد.

ما للمعارف ترسل «النظرات» ... نحو الثرى وتسلسل «العبرات»
فالمغرب الأقصى يعزِّي مصرَ في ... ذاك الأبِي مذَلِّل العقبات

ومنذ ذاك بدأنا نستشف من خلال نماذج شعرية اتجاها جديدا في التفكير، ولكن التأرجح بين العقل والوجدان قضى بغلبة هذا على ذاك، ،فهذا الشاعر الكبير علال الفاسي يقول :

مضى الشطر من عمري وإني دائما ... حليف هوًى مغرٍ وخدنُ أذى مُعدي
وأطمح للروحى كبلسم جرحها ... فتابى سوى صدِّي وتابى سوى ردِّي
وأطلب عقلي منجدا في كفاحنا ... ولكنها تطغى على العقل في الحد
تُجاذبني أهواء ها وتمد لي ... ظلالا من الألوان لامعة المد

ولكنه فجر مع ذلك في دواوينه سيولا غامرة فتقت قنوات الصرا ع وينابيع الاستشهاد في الكفاح ضد المستعمر.

ومثله عبد الله ابراهيم في قوله :

سر كرعش الكهربـــــــــــاء   أفشته ألسنة القضـــــــــاء
فأنا هنا قوى اندفــــــــاع   ليس يحكمها ذكـــــــــاء
فسل النجوم لو النجـــــوم   تجيب في لغة الضيـــــاء

إلى أن قال :

ياليت شعري ما القضـــــاء   وكيف أفشاني القضـــــاء
أمصير أتعاب الشعـــــوب   وما بنته الى الفنـــــاء ؟

وقد أدليت بين الدلاء وأنا ابن العشرين فقلت أصف الربيع :

النور بدد ما اعتكـــــــر   لما بدا ضوء القمـــــــر
والأرض في جنباتهـــــا   عرف الربيع قد انتشـــــر
وانســاح فــي الــروض المـنـمـنـم   خده موج البشـــــر
فالجو يغشاه السنـــــاء   ببرقة تجلو النظـــــر
والقلب يخفق نشـــــوة   فيشع بالزهو البصـــــر
والنفس نبَّع فيضُهـــــا   فتزاحمت فيها الفكـــــر
والطير يشدو زاهيـــــًا   من فوق أفنان الشجـــــر
نبراته رقراقـــــة   مثل الزلال بلا وتـــــر

تلك نماذج مزجاة لعلها ترسم لنا صورة واضحة عن هذه الفسيفساء التي أبدعت زخرفتها شاعرية مغربية فياضة منذ أزيد من ألف سنة. وقد حفل بحثنا بتراجم لهؤلاء الشعراء ألحقنا بكل ترجمة خلاصة المظان والمراجع التي استقينا منها وهي تشكل رصيدا ثريا أحلنا عليه القارىء الكريم ليقتبس منه المزيد من الانتاج الشعري المغربي ، ونود الآن الإشارة إلى مراجع أفردت لوصف هذا التراث، وقد سقناها على سبيل المثال لا الحصر منها (حسب الترتيب الأبجدي) :

- «نثير الجمان في نظم فحول الزمان من أهل المائة الثامنة من فرسان الكتيبة الكامنة» (الفصل الثاني في شعراء الأندلس والمغرب) لأبي الوليد بن الأحمر.

- «شعراء أهل البيت» : ديوان جمع فيه السلطان المنصور السعدي شعراء أهل البيت، أتى فيه على أزيد من ألف ترجمة مع شعره هو «كشف الظنون »(ج 1، ص400) وأشار(الشهاب) في(الخبايا) الى هذا الديوان وذكر (الزياني) أنه وقف عليه إلا أنه لم يستوف الألف شاعر من أهل البيت.

- «الكوكب الثاقب في أخبار الشعراء وغيرهم من ذوي المناقب» لعبد القادر بن عبد الرحمن السلاوي الفاسي، ألفه (عام 1176هـ/1762م) يحتوي على مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة في غرائب الشعر وفنونه وحكاياته (خح/925، التيمورية 335 تاريخ، 473 ص، دار الكتب المصرية (4845 أدب) مكتبة الشاذلي النيفر بتونس / دار الكتب الوطنية بتونس ق. 275 - س.25 /مكتبة حسن حسني عبد الوهاب 18429) / «السلوة»، ج 2، ص 186، «فواصل الجمان»، محمد غرِّيط ، ص 199.

- كناشة لعبد العزيز الغرديس أورد فيها أشعارا وتراجم مغربية (خع 1081د).

- كناشة لعبد الواحد بن محمد بن فقيرة المكناسي (1317هـ1899م) جمع فيها أشعار أدباء القرن الثالث عشر (خع 158د157د).

- «المطرب من أشعار أهل المغرب»، تحقيق د .مصطفى عوض لعمر بن الحسن ابن دحية السبتي(633هـ /1264م).

- «الأدب العربي في المغرب الأقصى» لمحمد بن العباس القباج (1399 هـ1979م) طبع في مجلدين عام 1929 وتجدد طبعه أخيرا.

- «الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة» لابن الأبّار محمد بن عبد الله القضاعي (658 هـ /1259م) (نسبه بروكلمان غلطا لابن الخطيب).

- «الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة» لمحمد بن عبد الله ابن الخطيب السلماني (776هـ/1374م) طبع ببيروت عام 1963 كاملا وطبع طرف من أوله بمطبعة يمني بفاس (عام 1327 هـ/1909م) توجد نسخة في خزانة القرويين (خق د132) المكتبة الوطنية بتونس (408م) ثلا ث نسخ في خح(6117/756/559) مكتبةالگلاوي(خع) /مكتبة تطوان (192)/ الزاوية الحمزاوية 128ـ141).

- «قصائد مختارة لأدباء العصر» لمحمد بن علي بن محمد بن أحمد الرافعي

التطواني(كان حيا عام 1116هـ/1698 م).

«تاريخ تطوان »ج 1، ص 372-390 /ج 2، ص 12-30)(وهو صاحب ديوان الشعر الحاوي لثلاثة ءآلاف بيت مرتب على حروف المعجم).

- «الروض الأريض من بديع التوشيح ومنتقى القريض» وهو ديوان شعر لمحمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد ابن زاكور الفاسي (1120 هـ/1708 م) صاحب «عنوان النفاسة في شرح ديوان الحماسة» (يوجد النصف الأول منه في الزاوية الحمزاوية 110- 164).

- كناشة لمحمد بن محمد بن الحاج بن سودة (1122 هـ/1710م) تحتوي على مختارات أدبية لشعراء من معاصريه كمحمد بن محمد ابن غازي (خع 163 د).

- «إفادات وأشعار» لخالد بن محمد الهادي العمري الطنجي، بقلم محمد بن محمد بن يحيى الطنجي (خح 2847).

- «الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة» لابن هاني محمد اللخمي السبتي (733 هـ/1332 م).

-«نبذة الزهريات» لمحمد بن يحيى الصقلي نزيل الدار البيضاء (جمع فيه مساجلات غرامية مع بعض الشعراء) - مطبعة العرب بتونس (1342هـ1924 م) (21 ص).

- «الشعر النسوي في الأندلس» لمحمد المنتصر الريسوني - بيروت، دار مكتبة الحياة ،1978(192 ص).

- «شعراء موريطانيا القدماء والمحدثون» لمحمد بن يوسف مقلد، الطبعة الأولى - الدارالبيضاء - مكتبة الوحدة العربية 1962(752 هـ).

- «رايات المبرزين وغايات المميزين» في شعراء الأندلس والمغرب، مكتبة الأزهر (أدب 642) (7224) طبع بمدريد عام 1942م1361/هـ مع الترجمة الأسبانية.

- «نفائح الأزهار في أطايب الأشعار» للمولى عبد الحفيظ.

- وهناك عشرات المراجع والمظان تتحفنا بنبذ رائعة من شعر فحول القريض قد نستجلي بعض مختاراتها في بحث لاحق.

المـــراجـــع

(1) كلمة لابي المواهب سيدي العربي بن السائح في رسالته (إفادات وإنشادات) وهي نسخة مخطوطة مصورة في مكتبتي الخاصة عن مخطوط الخزانة العامة بالرباط(خع) ص 21.

(2) توجد منه نسخة في (خع 1013د) وأخريان في خع 7095 ـ7698,

(3) «السلوة »ج 2، ص 39, توجد نسخة بمكتبة تطوان (رقم 225).

(4) «المعجب» لعبد الواحد المراكشي طبعة سلا (1357 هـ /1938) ص 128، وقد تراوحت قيمة الدينار بين 4و 5 غرامات من الذهب.

(5) «الاعلام » للمراكشي، ج : 4، ص : 367، الطبعة الأولى.

(6) «تاريخ ابن الفرضي» ج 1, ص : 323. «بغية الوعاة » ص : 58 «العبر» للذهبي، ج : 3، ص 181.

(7) صاحب «أنس السمير في نوادر الفرزدق وجرير» توجد نسخة من هذه المخطوطة القيمة في خزانة القرويين (خق 635/80) (188 ورقة) وفي خع (300 ك) (339 ورقة) والمكتبة الحسنية(خح1932/1297) والمكتبة الصبيحية بسلا (رقم 283) (200 ورقة).

(8) « معجم البلدان » ج 6، ص 365.

(9) ذكر«كتاب الضرائر» هذا عبد القادر البغدادي في(خزانة الأدب)

(10) توجد نسخة بالخزانة الأحمدية السودية بفاس ضمن مجموع (80 بيتا).

(11) « الاعلام» للمراكشي، ج 5 ، ص 56 ـ الطبعة الأولى.

(12) في كتاب «نثير الجمان من أهل المائة الثامنة من الفرسان» (دار الكتب المصرية عدد 1963 /3791) وتوجد نسخة بالخزانة الحسنية بالرباط ـ طبع في بيروت بدار الثقافة عام 1967.

(13) «الاستقصا» ج 2، ص 178.

(14) نسخة مخطوطة في خع 1115 د.

(15) نسخة بخزانة العلامة المختار السوسي.

(16) (كتاب النهضة العلمية في عهد الدولة العلوية) لعبد الرحمن بن زيدان.

(17) نسخة بالمكتبة الوطنية بتونس (3848 م) /خم 7520 باريز/6230 القاهرة 334،ا

(18) ج ا، ص : 6ـ9ـ 12ـ310.

(19) جمعت في مخطوطة توجد بخزانة الأستاذ محمد المنوني.

(20) راجع في « الأنيس المطرب » للعلمي :القصائد العشرة في الشوق للبقاع المطهرة). وهي مرتبة على حروف المعجم، راجع مجموعة منها في «ركب الحج المغربي» لمحمد المنوني ص 44ـ راجع ملخص الرحلة في «الاعلام» للمراكشي، ج 4، ص 273. الطبعة الأولى.

(21) «نزهـة الحادي » ج 4,ص 35 و 262).

(22) نفس المصدر، ج 4 ، ص 36.

(23) «نشر المثاني» ،ج 2 ، ص 40.

(24) «تاريخ تطوان» لمحمد داود، ج 2, ص 12.

(25) «المقدمة » م اص 602 (طبعة بيروت) / «معجم البلدان »ج 4,ص27.

(26) «نفح الطيب» ج 2، ص 454 مطبعة مصر.

(27) « المعسول» محمد المختار السوسي (ج 16, ص 261).

(28) «المعسول» ج 1 ص 184.

(29) من هوزالة (أوزال) بسوس.

(30) «روضة الآس»للمقري (المطبعة الملكية بالرباط ، ص90 .

(31) طبعت في تطوان في 144 ص.

(32) «الإعلام » للمراكشي، ج 7، ص 95 ـ 106، الطبعة الأولى .

(33) لمحمد بن سعيد بن محمد الرعيني السراج الفاسي (778 هـ/1376م) «الجذوة» ص 147«السلوة» ج 3، ص278) أيضا «رسالة في الوعظ والشعر».